**شجرة السدر**

**حسين الزيادي**

كان المعلم حسن عائداً من السوق، متجهاً إلى بيته المحاذي للنهر الذي يشطر القرية إلى نصفين، ثمة نساء توشحن بالسواد، وعربة يجرها حصان متعب يسحب أقدامه بعناء ومشقة، كان حسن يحمل بيده اليمنى كيس رتيب تبضع فيه بعض الحاجيات، وبالأُخرى شتلة سدر صغيرة قيل له أنها مطعمة بالتفاح، كان يخطط لزراعتها في باحة منزله، عند منعطف النهر أوقفته سيارة مظللة، نزل منها رجلان بملابس رسمية، نظراتهم باردة كالحديد ألقوا عليه التحية ببُساطة تبدو بريئة ، وطلبوا منه مرافقتهم إلى مديرية أمن المنطقة، تساءل حسن عن السبب، فقالوا له إنها مجرد معلومات بسيطة، طلب منهم السماح له بإيصال الشتلة والحاجيات إلى بيته، قالوا إن الحاجيات ستكون معه، فالأمر لا يستغرق سوى خمس دقائق، وبإمكانه أن يضع الشتلة على ضفة النهر ليأخذها عندما يعود، فعل حسن ما طُلب منه ووضع النبتة على ضفة النهر لتلامس جذورها بعض الماء ، ابتسم الرجلان ثم اقتادوه إلى السيارة.

ما أن دخل دائرة الأمن حتى تلقى ركلة قوية على مثانته، كانت ضربة كفيلة أن تنقل حسن إلى رائحة التنور الذي أوقدته زوجته فجر هذا اليوم ... قاموا بشد قدميّه على عمود من الخشب، ورفع شرطيان العمود من كل طرف، فأصبح باطن قدميه باتجاه السقف، وأخذوا يلسعونه ضرباً بسياطهم، مع سيل من الشتم والسب والقذف والتكلم بفاحش الكلام، وكانت الكابلات عبارة عن أسلاك معدنية من النحاس مغلفة بطبقة من البلاستك المطاط، تهوي على ظهره فتشتعل نيران الألم في جسده النحيل، في اليوم الثاني بدأ التحقيق: حسن أنتَ تتآمر على الثورة؟، صاحَ الضابطُ وهو يربطُ يديّ حسن بسلكٍ كهربائي.

حسن: أنا لا أعلمُ عما تتكلم فأنا إنسان تربوي، تعصب الضابط وصاح على أحدهم أخرجوه تعمقوا معه في التحقيق، كانت عبارة تعمقوا شفرة يستخدمها السجانون، وهي امر لزيادة التعذيب.. نُقل حسن إلى غرفة اصطبغت جدرانها بالدماء.. رُبط على الكرسي بقوة، تم غرس الأبر في أنامله بين الظفر واللحم، وقُلعت أسنانه بالآت الحديدية، وضعت مكواة ساخنة على صدره ، وفي لحظات، تبدأ رائحة الشواء بالانبعاث .. يتفتّق الصراخ من أعماق الجسد كبركانٍ داخلي ... ألقي حسن بعدها في بركة ماء باردة جدا كان أول صباح له بين جدران الرطوبة العفنة، جسده النحيل مربوطاً على كرسي حديدي، بينما وقف الجلاد ، رجلاً ضخماً بشوارب غليظة تنبعث من أنفاسه رائحة القسوة .. لم يصدق حسن أن يدينه الملوثتان بالطباشير ستُقيّدان ذات يوم بالحديد.

**لقد كانت المكواة و** الضربُ بالأسلاكِ مجرد بداية توالت بعدها الصعقات الكهربائيةُ على باطنِ القدمين وفي الاذنين وتحت الحزام، وكل صعقة كهربائية تجعل جسده يرتجف كورقة في إعصار.. ساعات كأنها أيامٌ طويلةٌ من الألمِ الذي لا يُطاق..

**في اليوم الرابع أُدخل حسن بعد أن جردوه من الملابس إلى غرفة مظلمة ملئت بشظايا الزجاج المتكسر ورشت بماء اختلط مع مسحوق الغسيل وفي زاويتي الغرفة وقف الحراس وبأيديهم الأسواط، فأمروا حسن بالمشي على أرض الغرفة الزلقة فكلما مشى خطوة انزلقت رجله فيضربه السجان بالسوط حتى يقوم، ويكرر المحاولة.. وهكذا اصبح الجسد الهزيل مرتعاً لشظايا الزجاج المتناثرة التي بدت كأنها تبحث عن** اكثر المناطق وجعاً، يتلوى حسن ويصبح قطعة من الدماء وسط قهقهات السجانين المسمومة التي تفيض بلذةَ القسوة ونشوةَ الاستعلاء، وتحمل في صداها احتفال مرصّع بخنوع الضحية ، وعزفاً على أوتار الوجع الإنساني.. وفي إحدى الليالي، بينما كانَ يُلقى بهِ على الأرضِ بعدَ جلسةِ تعذيب جديدة، سمعَ صوتَ سجين عجوز يهمسُ لهُ من خلفِ الجدران: لا تَخَف.. فالحقيقةُ مثلُ النورِ، لا تُطفئُهُا الأصفاد.

عشرون عاماً في زنزانة مظلمة، في ظلام الأقبية، حيث تُنتزع الكرامة وتُدفن الإنسانية، كان يجرُّ أقدامَهُ الواهنةَ في زنزانتهِ الضيقة، تعرض خلالها لأنواع التعذيب البدني...أصيب بانحراف في الورك؛ بسبب عقوبة (الفلقة) ...ادرك اخيراً أنَّ الحقيقةَ التي علَّمها لتلاميذه طوال عشرينَ عاماً ستكونُ سببَ هلاكِهِ، كان حسن يحفر الحروف على الجدار بأظافره، ويكتب الدروس بدماء أصابعه ، لم يعد جسده يحتمل، عيناه غائمتان، يداه تشبهان أغصاناً ميتة، بينما كان يتخيل ولده علي وهو يلقي خطاب التخرج في الجامعة، وفاطمة تخرُجُ من ظلال الدراسة إلى سماء النور… كأنّ نبض أملِهما يعيد إلى جسدهِ المنهك شيء من أنفاسه المنطفئة... ذات ليلة، بينما كان حسن يُناجي ربه في صمت، رأى الإمام الحسين عليه السلام يقف أمامه مبتسمًا، قائلاً: صبرك على بلائك هو سلاحك، وثباتك هو طريقك، استفاق أحمد من نومه، وقد امتلأ قلبه بالطمأنية والسلام، وعيناه تلمعان بالأمل، منذ تلك اللحظة، أصبح حسن يرى في كل ألمٍ درسًا للصبر..

وفي صباحٍ ليلة خريفية باردة فُتح باب الزنزانة فجأةً، سمع صوتاً لم يعهده .. صرير مفتاح في قفل الزنزانة، لم يرفع حسن رأسه، فقد تعلم أن الأبواب هنا لا تفتح إلا لدخول الجحيم، لكن هذه المرة... كان الصوت مختلفاً ، دخل ثلاثة من السجانين .. أُخبروه أنه حرٌّ، اجهش بالبكاء وبدت الدموع الساخنة تسيل كأنها تبحث في طريق متعرج بين التجاعيد العميقة التي اتعبها الزمن ، لم يسأل عن السبب، بكى حسن بحرقة ليس لان ايام السجن انتهت، بل لان الحرية صارت غريبة عليه... شدّ حسن رحاله نحو القرية التي تركها شابًّا في الخامسة والعشرين، وعاد إليها رجلاً تطاول به الحزن ، مشى بخطواتٍ ثقيلة مترنحة متجهاً إلى النهر نفسه، حيث توقفت ذاكرته، استظل بشجرة سدر عملاقةً تهدّلت اغصانها تحت وطأة ثقل الثمار، كانت شجرة ظليلة شامخة، أغصانها المثمرة تمتد كأذرع حنونة، كأنها تهمس للنهر الذي كان يومًا ما يفيض بالحياة فيتبادلان الحكايات، لمس جذعها الخشن مرتجفاً.. أخذ يتناول من ثمارها المطعمة بالتفاح، بينما كانت دموعه تسقي الأرض التي سقاها ذات يوم بأحلامه المسلوبة.. نظر إلى النهر فوجده منكمشا قد تقلصت ضفافه، والأطفال الذين علّمهم صاروا معلمين، يحكون لتلاميذهم عن رجلٍ اختفى منذ عشرين عاماً كان يعلمهم أن معركة الطف منهجٌ اصلاح دائمٍ وان عاشوراء، ليست فاجعة أليمة محصورة في زمان معين، بل نافذة تشع ايماناً وقداسة.. أدرك حسن أن الظلم قد يسرق الأعوام، لكنه لا يستطيع اقتلاع الجذور ، ادرك حسن ان **حب الحسين يتطلب التضحية** .. **الضريبة كانت عشرون عاماً لكنها ليست خسارة** فالعاشق الذي يدفع الثمن يصبح أكثر قربًا من معشوقه.

.